اختلاج العين

في مجلة المجمع مجلد ٢٠ (ص ١١٨) بحث مستفيض للعلاّمة الشيخ عبد القادر المغربي . في قولهم : « خَلَجَت عينهُ واختلجت طارت » . وهو قول كلٍّ من الصحاح ومختاره واللسان والقاموس والأُوقيانس . وثابت في ما لبعضها من نسخ خطية محفوظة في دار الكتب الظاهرية بدمشق .

وهو يرى أن « طارت » هنا مصحفة عن « حارت » وأنه تصحيف قديم .

فبعد تحقيقه الدقيق يتعذّر التعقيب . ولكن يحمل على التنقيب حبُّ الوصول الى ما يثبت التصحيف أو ما يؤيد النص . لعله يرى رأياً آخر . واني مورد ما تيسر لي الظفر به .

معلوم ان الجوهري أقدم المذكورين عهداً . وفي دار الكتب بالاسكندرية نسخة خطية من الصحاح (رقم ٧٩٤ ب) . واضحة الخط والضبط بالشكل . وفي ختام الجزء الأول منها ما يلي : « وجدت في النسخة التي نُقلت هذه النسخة منها ما صورته . نقلته من خط ابي سهل الهروي نقله من خط الجوهري [1] مصنفه رحمه الله هذا آخره والله أعلم » .

« وفي النسخة المنقول منها هذا الكتاب سماع بخط محمد بن محمد بن بنان الأنباري بتاريخ ذي القعدة سنة خمس وثمانين وخمس مئة » اهـ .

---

(١) قال ياقوت : « وقفت على نسخ الصحاح بخط الجوهري بدمشق عند الملك المعظم بن العادل ابن أيوب صاحب دمشق . وقد كتبها في سنة ٣٩٦ » اهـ .

ثم ان الثعالبي مواطن الجوهري ومعاصره (٣٥٠ — ٤٢٩) فهو أعلم الناس به . وقد ذكر ثناء أبي محمد اسمعيل بن محمد النيسابوري عليه وان عنده الصحاح بخط مؤلفه .

قلت هذا دفعاً لمن زعم أن الجوهري لم يتم الصحاح . أو أنه بيضه إلى حرف الضاد كما ادعى علي بن فضال المجاشعي وان باقيه بيضه أحد الوراقين . ومعلوم أن المجاشعي كانت وفاته سنة ٤٧٩ أي بعد الجوهري بثمانين سنة ونيف .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وعبارة الجوهري المقصودة : « وخَلجت عينه تخلُج وتخلِج خلوجًا واختلجت اذا طارت وخَلَجَه بعينه أي غمزَه » اهـ .

وإنَّ نسخة متصلة النقل بنسخة الجوهري وبسماع من بعده لحرية بالثقة ضمينة بالأمانة . ومع هذا فقد عُدتُ الى نسخة خطية ثانية في دار الكتب . والى نسخة عندي من « المنتخب من تاج اللغة وصحاح العربية » بخط واضعه شمس الدين ابن اسمعيل وهو قد فرغ منه في ذي القعدة سنة ٨٩٤ . وهي غاية في الصحة . والنصُّ في الجميع واحد .

ولا حاجة بي الى ذكر نسخ أُخرى حديثة .

فالتقاء النسخ المختلفة من الصحاح القديمة والحديثة الخطية والمطبوعة . عند نصٍ واحدٍ يحمل على الاعتقاد ان القول مما اثبته الجوهري .

ثم ان الصغاني وضع مصنفه « التكملة والذيل والصلة » وحجمه يزيد على ضعفي الصحاح . وقد اعتمده أئمة اللغة لما هو عليه من الصحة . وهو قد تعقب فيه الجوهري حرفًا حرفًا . وكتب في ختمه : « فمن رابه شيء مما في هذا الكتاب فلا يتسارع الى القدح والتزييف والنسبة الى التصحيف والتحريف . حتى يعاود الأُصول التي استخرجته منها والمآخذ التي أُخذت على تلك الاصول وانها تربي على الف مصنف [1] الخ . اهـ

وقد عقد الصغاني فصلاً ضافيًا في حرف (خ ل ج) ولم يتعرض لقول الجوهري « خلجت العين واختلجت إذا طارت » ولا ذكر لاختلاج العين تفسيراً غير ما فسر به الجوهري .

ثم ان صاحب مختار الصحاح ثقة وقد أثبت قول الجوهري واقتصر عليه .

---

(١) الصغاني أتم التكملة في العاشر من صفر سنة خمس وثلاثين وست مئة . ونسختي مأخوذة بالتصوير الشمسي عن نسخة كتبت في حياة المؤلف « فرغ من تحريرها سنة اثنتين وأربعين وست مئة » وحواشيها فيما اعتقد بخط الصغاني نفسه لأنها وما ختم به الصغاني الكتاب خط واحد . أما وفاة الصغاني فكانت سنة ٦٥٠ ومولده سنة ٥٧٧

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأما الفيروزبادي فقد أخذ عن الصحاح . وكل ما زاده عليه وخطأه فيه قد اقتبسه من الصغاني . وقد اعتمد عبارة الجوهري في تفسير «خلجت عينه واختلجت اذا طارت» . ولم يزد عليها .

وكان العلامة الشنقيطي قد وقف على النسخة المقروءة على الفيروزبادي . وعارض بها نسخة القاموس المطبوعة سنة ١٣٠١ ونبه على كل ما وجده مخالفاً للأصل . ولم ينبه بشيء على قوله «خلجت عينه واختلجت اذا طارت» . فهو دليل آخر على ان ما في نسخة الصحاح التي اعتمدها الفيروزبادي في هذ الحرف وفق ما تقدم .

وفي افعال ابن القوطية : (خلج ... بالعين أشارَ .. والعينُ والحاجبُ تحركا) اه . فأورد ابن القطاع في افعاله قول ابن القوطية ثم جاء في ما استدركه عليه : «خلجت العين طارت» اه .

فالجوهري في من ذكرت اقدم من قال « اختلجت عينه اذا طارت » فان وفاته كانت سنة ٣٩٨ ، فالأشبه ان الآخرين أخذوا هذ القول عنه . فابن القطاع مولده سنة ٤٣٣ ووفاته ٥١٥ ، وابن منظور مولده سنة ٦٣٠ ووفاته ٧١١ والفيروزبادي عاش من سنة ٧٢٩ الى سنة ٨١٧ .

وأما ابن القوطية فقد توفي سنة ٣٦٧ اي قبل الجوهري فلم يقل مثل قوله . وممن تقدّمه ابن دريد . عاش من سنة ٢٢٣ الى سنة ٣٢١ وعبارته في الجمهرة : « خالجَ قلبي أمر إذا نازعك به فكرُك ومنه اختلاج العين وسائر الأعضاء وهو اضطرابها » . وفيها : « قالوا الخلج داء يصيب البهائم تختلج منه اعضاؤها » اه .

وممن تقدّمه أيضاً ابو منصور محمد بن احمد ابن أزهر المعروف بالأزهري صاحب تهذيب كتاب العين عاش من سنة ٢٨٢ الى ٣٧٠ ومما أثبته في تركيب « خ ل ج » : قال الليث : يقال خلج الرجل في حاجبيه عن عينيه واختلج حاجباه وعيناه إذا تحركا ... وتخالجته الهموم ... وقد خلجه بعينه اذا غمزه .... وقال الليث مما يكون الخلج من تنقض العصب في العضد حتى يعالج بعد ذلك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فيستطلق وانما قيل له خلج لأن جذبه يخلج عضده .... وقال شمر التخلج التحرك يقال تخلّج واختلَج « إذا اضطرب وتحرك ومنه يقال اختلجت عينه » اهـ .

وأما ابن سيده الأندلسي فيكاد يتصل بعصر الجوهري (٣٩٨ - ٤٥٨) ومن عبارته في المحكم : « خلجه بعينه وحاجبه ... غمزه والعين تختلج أي تضطرب » اهـ.

فحيثما قال ابن دريد والأزهري وابن سيده اختلجت العين اذا اضطربت قال الجوهري ومن أخذوا عنه « طارت » . ويستبعد ان يفوت هؤلاء الثلاثة ما يعنيه العرب باختلاج العين على شيوعه وجريه في أشعارهم وأمثالهم وتفاؤلهم به بالخير من زمن الجاهلية الى عصرنا هذا ، كقول عمر بن أبي ربيعة :

اذا خلجت عيني أقول لعلها لرؤيتها تهتاج عيني وتطرب
اذا خدرت رجلي أبوح بذكرها ليذهب عن رجلي الخدور فيذهب

ومن أمثالهم : « أبشِر بما مرّ ك عيني تختلجْ »

وقال ابن الرومي :

لك وجهٌ تذوبُ مَقتاً وبُغضاً لهُ المُهَجْ
ما بأمثاله ببشرٍ جَفنٌ اذا اختلَجْ

وقال ابن أبي ربيعة أيضاً :

لهُ اختلجت عيني أظنُّ عشيةً وأقبلَ ظبيٌ سانحٌ كالمبشِّر

وقال ابونواس :

غابت عن الأعين حتى اذا لم أرجُ من غيبتها أوبا
اختلجت عيني فأبصرتها كأن عيني تعلمُ الغَيبا

وقال : جفنُ عيني كاد يسقطُ من طول ما اختلَجْ
وفؤادي لحرّ حُبيكِ والهمّ قد نضَجْ

ومثل هذا كثير لا يغفل عنه الجوهري ومن قالوا قوله .

والذي يبدو الى الذهن أنها لغة لبعض العرب يقولون طارت العين بمعنى اختلجت أخذاً من اضطراب جناح الطائر كما قالوا رفّت بهذا المعنى أيضاً . هي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من رفيف الجناح ، وقد أورد عليها الزمخشري في الأساس قول بعضهم :

لم أدرِ إلا الظنَّ ظنَّ الغائبِ أبِكِ أم بالغيث رَفَّ حاجبي

وقس على ذلك حرف « لَمَعَ » قالوا لمعَ البرق وقالو لمع الطائر بجناحيه اذا حركهما في طيرانه وخفق بهما . ومنه استعاروه لاختلاج الجفن أيضاً .

قال جميل بن سيدان الأسدي . من شعراء الحماسة :

أيا جملُ هل دَينٌ مؤدًى لحينهِ فقد جلَّ ذاك الدَينُ واحتاج طالبهْ

وطالت به أحلامه أن قضيتهِ وظلَّ بما منَّيتهِ يلمعُ حاجبهْ

ولمع بهذا التركيب الأخير قد اغفلوه كما اغفلوا طار .

ولا بدع ان لم تثبت الأُمهات في الباب طيرانَ الجفن لاختلاجه . فما أكثر ما لم يثبتوه : ففي حرف طار نفسه مما أغفلوه منه :

١ — الطيّار . لهذا الضرب من السفن السريعة يتخذها الأمراء والخلفاء والأعيان بمثابة ما نسميه اليوم اليخت Yacht وكان استخدامه من الشيوع في زمن الدولة العباسية وما بعدها بحيث لا تكاد تخلو واقعة من ذكره . فأذكر من ذلك عبارة أو اثنتين كي لا نرسل الكلام على عواهنه . ففي تاريخ الطبري (١١ — ٣٣٣) : « وصار الطائي إلى دجلة فدخل طيَّارَهُ ليعبرها فأدركه أصحاب العبدي فتعأنوا بكوثل الطيار فرمى الطائي بنفسه في دجلة فعبرها سباحة » اهـ .

وفي تاريخ الوزراء لهلال الصابي (ص ٥٠) : « ووثب العامة على ابن الفرات ورجموا طيَّاره بالآجرّ » . وفيه (ص ٥١) : وركب ابو العباس ابن المقتدر بالله اليه أيضاً فخرج حافياً حتى نزل إلى طيارهِ » . وفي تجارب الأُمم لابن مسكويه : (٥ ص ٢٠) : « وفيها (اي سنة ٢٩٩) غرقت فاطمة القهرمانة في طيارها تحت الجسر » اهـ .

وليس في الأُمهات ذكر للطيار بهذا المعنى . وانفرد بذكره من المتأخرين صاحب أقرب الموارد . غير انه جاء عنده مرسوماً « طيارة » [بهاء] سهوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وعبارته في ما اعتقد منقولة عن ابن الأثير (ج ٨ ص ٨٠) فقد جاء فيها الطيار مرسوماً بهاء على ان العبارة نفسها وردت في تاريخ ابن خلدون (ج ٣ ص ٣٩٣) والطيار بدون هاء .

٢ — أما الطيارة . فقد استعملها المتقدمون بمعنى المظلة الأمير وغيره وهي أيضاً مما خلت منه دواوين اللغة . ففي تاريخ الطبري . حوادث سنة ١٤ [ج ٤ ص ١١٣] : « ولما عبر أهل فارس العتيق أخذوا مصافّهم . وجلس رستم على سريره وضرب عليه طيارةً وعبّى في القلب ثمانية عشر فيلاً عليها الصناديق والرجال » الخ .

وفيه [ص ١٣٢] : « وانفرج القلب حين قام قائم الظهيرة وركد عليهم النقع . وهبت ريح عاصف فقلبت طيّارة رستم عن سريره فهوت في العتيق الخ » اهـ .

وقد تكرر ذكر الطيارة هذه في مروج الذهب للمسعودي والكامل لابن الأثير في وصف يوم القادسية . فهي بمثابة ما يسمونه Pavillon .

٣ — ومما خلت منه دواوين اللغة في هذا الحرف : « الطيران » و « الطيارة » في الكلام عن الأجسام [ويسمونها الأرواح] التي يضيع جوهرها في الهواء اذا عرضت للحرارة . وهو ما يسمونه التصعيد . ففي مفاتيح العلوم للخوارزمي . من أهل المئة الرابعة قال عند ذكر الكبريت والزرنيخ والزئبق والنوشادر : « سميت هذه الأرواح لأنها تطير إذا مسها النار » اهـ .

وفي « عجائب البرّ والبحر » لشمس الدين الدمشقي . وَصَفَ النشادر بالطيّار Volatil .

ولا ذكر لهذين اللفظين في المعجمات .

٤ — وفي المقامة النجرانية للحريري انهم يطلقون « الطيار » على لسان الميزان أو معيار الذهب . وهذا اللفظ أثبته البستاني في محيطه ولم يرد قبله في شيء من أمهات اللغة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

خلاصته ان قول [1] الجوهري « طارت عينه بمعنى اختلجت » قد يكون مما أخذه عن عرب ربيعة ومضر لأنه أقام عندهم زمناً يقتبس كلامهم .

هذا ما عنّ للخاطر عرضه والله أعلم .

(الاسكندرية) جبران النحاس

---

(١) نسبة هذا القول إلى الجوهري ذهول من الأستاذ الفاضل إذ أن الجوهري في مادة (ط ي ر) لم يقل قط إن طارت عينه بمعنى اختلجت . ولو قال ذلك لما تطرق الشك إلى أن (طارت) محرفة عن (حارت) ولاعتُبر قوله نصاً في المسألة ولصح لنا إذ ذاك أن نقول ربما أخذه عن عرب ربيعة ومضر فتبعه من بعده . أما من قبله من حَمَلة اللغة فلم يسمعوه حتى يدوّنوه ومن سمع حجة على من لم يسمع ويكون هذا المعنى (أي الاختلاج) لفعل طار مما انفرد به الجوهري وهو من أوثق نَقَلة اللغة بلا خلاف — وإنما هو (أي الجوهري) قاله في مادة (خلج) تفسيراً لا نصاً . وعَرَضاً لا قصداً : فقد قال ا وخلجت عينه واختلجت إذا طارت) وحينئذ نقول إن هذا التفسير بطارت قد يكون تحريفاً من النساخ . وما أكثر وقوع مثله من مثلهم . وما أقرب حرف (ط) من حرف (ح) . ولا سيما أن أحداً من فحول حَمَلة اللغة ونَقَلَتها (ممن عاش قبل الجوهري وفي زمنه) لم ينقل هذا التفسير ولم يدونه . وعدم نقلهم له يروّج بل يقرّب لعمري احتمال التحريف . ويقال فوق ذلك : كيف يُتوقع من الجوهري وهو أدقُّ شرّاح اللغة العربية أن يفسر (الاختلاج) الشائع استعماله في أشعار العرب وأمثالهم وتقاويلهم منذ زمن الجاهلية إلى عصرنا هذا — يفسره (بالطيران) والطيران لم يعرفه أحد ولم ينقله أحد ولم يستعمله أحد من شعرائنا ولا أدبائنا بمعنى الاختلاج !!!

نقول هذا اليوم ولعلنا نظفر في مستقبل الأيام بمن استعمله أو رواه ودوّنه أو حقّقه مثبتاً أو نافياً . فهل من يقوم فينقب ويتقصى ويخلي أسفار نصوص اللغة ومراجعها القديمة التي في يده كما فعل الأستاذ الباحث فنجمع بينهما . في الشكر لهما . والتنويه بفضلهما . وبالغ خدمتهما للغة قومهما ؟؟؟

المغربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net